الشفات الى ما ينشأ من الخير او الشر عن اخراجه من القوة الى الفعل ولا الى طبيعة النتائج التي تنتج عن ذلك . وكل من يحبي الحق ولو ببعض تحفظ ويتلاعب اقل تلاعب في عرض الحقائق التي هي غرض بحثه او في الاقيسة التي يستخرجها منها لا يستحق ان يعطى مكاناً في ذلك العمل العظيم الذي يقدم فيه الصدق والامانة كل التقديم على الحذق والمهارة سواء كانت البواعث التي بعثته على ذلك وطنية او دينية او ادبية

فاذا بنيت الابحاث المشتركة على هذا الاساس واجريت هذا المجرى في جميع البلاد المتمدنة تكوّن منها وطن مشترك يسمو على مجموع الامم المتعادية وحدودها فلا تدنسهُ حرب ولا يهددهُ الغزاة الفاتحون . وتجد فيه العقول ملجأها وواسطة عقدها . انتهى

« هذا ما قالهُ عالم فرنسوي شابٌّ ووطني فحٌ في سنة ١٨٧٠ . ولست اعلم هل قام في باريس من يقول مثل هذا القول الآن . وسيبدي لنا الايام ذلك . ولكني اريد ان اذكركم اليوم كلمات هذا الرجل القدير الكبير النفس الذي ضمّ بين جوانحه حبّ بلاده وحب الحق . عسى الله ان يكون كلامهُ هذا قد لقي قلوباً واعية وصدوراً ذات زرع فلا يذهب نفخة في رماد او صرخة في واد »

جميل انكلترا على فرنسا

اذا كان لفرنسا جميل على انكلترا بتحريرها من قيود شعب فظ مفاج فلانكلترا جميل على فرنسا ببث روح الانسانية الصحيحة التي يتحلى بها الشعب الفرنسوي واعني بها محبة الامم الغريبة والتفاهم معها واكتساب ثقتها لان فرنسا في القرن الثامن عشر كانت منعزلة عن بقية الامم ولا اختلاط لها الا بالامة الانكليزية . ولا بدع اذا قلنا ان الجهاد العظيم الذي جاهدتهُ فرنسا في ذلك العصر لاكتساب الحرية وكسر قيود الاستبداد وقام عليهِ مجدها ومفاخرها يعود معظم الفضل فيهِ الى التأثير الحسن الانكليزي في الامة الفرنسوية

(١) تكوين القرائح

ان نسخ منشور نانت[1] دعا الى مهاجرة الوف من خيار الفرنسويين الى بريطانيا العظمى لان كثيرين من الهوغونوت[2] المتنورين لجأوا اليها ليتنشقوا فيها نسيم الحرية ويذوقوا ثمارها ولم يكونوا قبل ذلك يعرفون عنها شيئاً الاَّ بالسماع ولا يسمعون عنها الاَّ ما كان رديئاً

(١) هو امر اصدرهُ هنري الرابع ومنح فيهِ البروتستانت حريتهم الدينية سنة ١٥٩٨ فنقضهُ لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥ (٢) هم طائفة من البروتستانت اتباع كلفن

كانت انكلترا في ذلك الوقت تحترم فرنسا وتحبها حباً فائقاً واما فرنسا من اشرافها الى عامتها فكانت تكره انكلترا كرهاً شديداً وترميها بالحماقة والكبرياء كما وصفها سنت امان في اشعاره. ذلك لان الشعب كان يجهل آداب اللغة الانكليزية جهلاً تاماً ولم يقف على شيء منها حتى اوائل القرن الثامن عشر حين ترجمت مؤلفات باكون «ورجل القمر» لغودوين وبعض الكتب القليلة الاهمية واما ترجمة شاكسبير فلم تظهر الاَّ سنة ١٧٧٦

وبلغ بغض الانكليز اشده في بلاط الملك وفي نفوس الاشراف والاكليروس فالملك الملقب بالشمس كان يتقي اضمحلال ذلك الشعب الانكليزي جاهلاً انهُ يتألف من قبائل تبلغ القمة منهم الى التعدي على الملك وعلى حقوقهِ المقدسة . وكان الكتّاب الذين يتقاضون الرواتب من لويس الرابع عشر او الذين يتزلفون اليهِ طمعاً بهباتهِ لا يدعون فرصة تفوتهم للتنديد بانكلترا والباسها كل صفة مكروهة ومستقبحة . وكان الاشراف يخشون جوار تلك الامة المضطربة في ارضها اكثر من اضطراب الاوقيانوس المحيط بها (كما يقول بوسيه) . والاكليروس يندد على الدوام بشعب يسهل عليهِ العبث بالدين وبكثير من امتيازاتهِ الدنيوية . وقد بلغ كرههم للانكليز انهم لم يقبلوا الكنكينا في اواخر القرن السابع عشر بحجة انها غذاء الانكليز (سبونجل - تاريخ الطب)

بينما كان الدم يجري في فرنسا انهاراً حول التعاليم الدينية كانت الاميال في انكلترا متجهة نحو الحرية الارضية فانصرف الشعب بها عن المناظرات الدينية . يدلنا على ذلك ان هنري الثامن وضع بنفسهِ نظام الديانة الاهلية ورتب نظامات الكنيسة ثم خلفهُ ابنهُ ادورد فهدم التعليم الكاثوليكي الذي اسسهُ ابوهُ وشيد البروتستانتية وخلفت ادورد ابنتهُ ماري فالغت البروتستانتية واعادت الكثلكة وخلفت هذه اليصابات فمحت الكثلكة والكاثوليك . وكان الشعب يشاهد سلسلة هذه الانقلابات الدينية بدون ان يهتم بها او يتأثر منها اذ لم تكن تهمهُ اميال ملوكهِ الدينية ما دامت حريتهُ محفوظة وسائرة الى الاتساع والنمو وهذا ما سهل على الملوك تنفيذ مآربهم واصبحت انكلترا في اعين الفرنسويين المتنورين الارض التي يشدونها لحرية الضمير لانهم مأوا من المشاهد المؤلمة التي تظهر في وطنهم على مسرح الانقلابات الدينية

وصل المهاجرون الى انكلترا فدهشوا اولاً مما شاهدوا فيها من كنوز الفكر والعقل ونظراً لما هم عليهِ من الذكاء وسرعة الخاطر لم يعتموا ان تحول اندهاشهم الى الاعجاب فتقربوا من الاهالي وامتزجوا بهم لوقوفوا على النفائس التي جهلوها في بلادهم وعلى درجة النبوغ الانكليزي وشرعوا في اصلاح اغلاط القرون الماضية وصرت منهم وبهم الى فرنسا اجمل

مظاهر العقل الانكليزي البادية في المأساة والرواية والشعر والصحافة والفلسفة والعلم فلم يهملوا شيئاً ولم يستخفوا بشيء فترجموا واجملوا المؤلفات المشهورة وكل مجلات العقل الانكليزي . وقد استفاد الانكليز انفسهم من عمل الفرنسويين هذا لانهم نشروا آدابهم وعمموها واذا كان للانكليز جميل عليهم من هذا القبيل فالفرنسويون اوفوه بصدق واخلاص لانهم اذاعوا مناقب انكلترا في كل اوربا وليس في فرنسا وحدها . ويقول رابين ده توراس ان الانكليز كانوا يجهلون تاريخ امتهم العام حتى اتى هؤلاء المهاجرون فنشروه وعمموه . وبواسطتهم ذاع فضل لوك ونيوتون وشاكسبير ورتشردسن كأنهم رسل انكلترا انبثوا في الارض ليذيعوا فضلها ومناقبها فاستفادوا وافادوا الانسانية عموماً

وبواسطة المهاجرين الفرنسويين عرفت اوربا محاسن الحكم النيابي في انكلترا لانهُ الى اوائل القرن الثامن عشر لم يكن يقال عنها في اوربا كلها سوى انها قاتلة الملوك فانقلبوا بعد ذلك الى اطرائها ايما اطراء

ومن ثم كانت انكلترا الباعث الاكبر لانقلاب اطوار الشعب الفرنسوي وزيادة اهتمامهِ بالامور الخارجية واطلاق الصنان لاحلامهِ بالمساواة والحرية وعدم وقوفهِ عند مراقبة ما يجري ضمن حدودهِ فاشترك معها في العمل واكتسب قلوب الشعوب التي تميل الى ذلك وتهتم للحياة العامة اللائقة بالناس الاحرار

نحو سنة ١٧٢٠ قام نزاع بين الروح الانكليزية والروح الفرنسوية كانت عاقبتهُ حسنة لصلحة الامتين وامتاز اصحاب الصحف الفرنسوية بتقريب افكار الامتين واتحاد ادبهما خدمة للانسانية وتبارى افضل الكتاب في هذا الباب كالاب برفوست صاحب « مفكرات رجل ممتاز » وهو كتاب يصح ان يكون دليلاً عمليًّا لحياة الامم المتمدنة ورابين ده توراس صاحب تاريخ البارلمان الانكليزي الذي اقبل عليهِ الجمهور اقبالاً عظيماً ووقع احسن وقع عند العقلاء حتى اصبحت جمعية الحكماء الساكسون الضالة التي ينشدها نظام الحرية

وبقي هذا الصدى يتردد الى عهد مونتسكيو مؤلف « روح الشرائع » فانهُ كان غير مقتنع بصحة النظام الانكليزي ثم مال بكليتهِ اليهِ وتشيع لهُ كل التشيع

وقد عم حب انكلترا والاعجاب بها الى درجة خشي معها بعض الوطنيين من تغلب هذا الحب على الروح الوطنية الفرنسوية فقامت فئة تنشر النشرات لمضادتهِ وتوقيف تياره وشرعوا في اواخر القرن الثامن عشر بمعاكسة كل اعضاء الجمعية الوطنية الذين يميلون الى الانكليز ومنهم ميكر ومونيه ولالي ومولهِ وبالاجمال كل حزب مونتسكيو الا ان ذلك

الحب تمكن وعجزت المساعي عن محوه وتحرير فرنسا من النفوذ الانكليزي

فبهذا التغير العظيم انقلبت اطوار الشعب الفرنسوي وجاز الحكم بان الانقلاب الاجتماعي العظيم الذي حصل في القرن الثامن عشر وانتهى بالثورة الكبرى قد حصل بتأثير الامة الانكليزية لان فرنسا التي ثقل كاهلها مدة حكم لويس الرابع عشر الطويل شعرت بحاجتها الى ما يجدد نشاطها العقلي الذي ضعف وكلّ بعد جهاد قرون متوالية فلم تجد منبهاً ومقوياً لهُ الاَّ في انكلترا فاليها يعود الفضل بدعامة الافكار والمبادئ الفرنسوية الجديدة وبتوجيه امواج الحياة الى العضو الذي ضعف دمهُ . ومن الخوض في محبة التمدن الانكليزي ظهرت تلك النتيجة العجيبة التي ادهشت العالم باسره

(٢) انكلترا والثورة الكبرى

مما يستحق الالتفات ولا يجوز اغفالهُ ان الاستقاء من الينابيع الانكليزية لم يقتصر على الفلاسفة ورجال القلم بل ان مبادئ المساواة والاستقلال الاجتماعي والاستقلال السياسي اخذت تتسرَّب من سماء انكلترا الى ارض فرنسا وتشبعت منها روح رجال العمل ورجال الثورة . وتدلنا كتابات تلك الايام على ان كل رؤساء الثورة كانوا يحبون بالعلماء الانكليز ورجال السياسة الانكليز والتعاليم الانكليزية والشعب الانكليزي فولدت في نفوسهم الرغبة في نقل فتوحاتهم الى ارض فرنسا . ويظهر ان كاميل دمولين ومونيه ولافايت وميرابو وبريسو وغيرهم من رؤساء الثورة كانوا ملمين بالتاريخ الانكليزي ويعرفون اللغة الانكليزية وآدابها ومن لا يعرفها يطالع ترجمات مؤلفاتها التي كثرت فيميل الى محبة شعبها وتمكن فيه الثقة والحماسة للتغلب في الجهاد العظيم القائم باسم الحقوق . ومن لطائف الروايات عن تمكن الروح الانكليزية في فرنسا ان دانتون قبل ان يصعد الى المشنقة قرأ كتاب « ليالي يونغ » لكي يموت موتاً شريفاً

بناء على ذلك اخذ النظام القديم في فرنسا يتنوع و يتقلص شيئاً فشيئاً وتمكنت المبادئ الحديثة فتغيرت روح الفرنسويين تغيراً تاماً في خمسين سنة لانهم كانوا قبلاً يحترمون حقوق الكنيسة والملكية ورتب الشرف فاخذوا يستقبلون الاستقلال الفكري الذي ينذر بحصول عاصفة شديدة . واذا قابلنا بين ثورة كرومويل وثورة ١٧٨٩ عجبنا للمشابهة بينهما من وجوه كثيرة وحكمنا بان فرنسا اكتسبت الثقة بقوة شعبها من فوز الشعب الانكليزي منذ مئة وار بعين سنة سبقت

ان طبقة الفقراء في انكلترا هي التي اثارت الحركة التي زعزعت اركان المجتمع ورفعت

منارة من اسفل الى اعلى . ولما انهدم الركن القديم وجّه الشعب اهتمامهُ الى سحق كل العوائق التي تحول دون توطيد النواميس الاجتماعية الجديدة فهدم الملكية واجتهد ان يلغي مجلس الاعيان وحصل كما حصل في ما بعد في فرنسا اي ان العامة استولوا على المراكز العليا وادهشوا العالم بكفاءتهم لان حوذيًا صار كولونلاً (ريد) وخادم خمارة نال هذه الرتبة ذاتها (اوكي) ومستخدمًا منحولاً لمحل تجاري اصبح جنرالاً (هوتي) وخادمًا (جونس صهر كرومويل) كان جنديًا من افضل الجنود واشهرها وخدام جزارين (سالوي . وين . وتمجبورن الخ) صاروا من قواد الجيش واصبح هؤلاء الرؤساء بجسارتهم وشجاعتهم مثالاً وقدوة للذين جاؤوا بعدهم . فالشعب الانكليزي الذي شاهد فعال اولئك الابطال الذين خرجوا من قلبه بدون ان يكون لهم تقاليد سابقة وبدون ان يكونوا قد تهيئوا بالتربية ليفعلوا تلك الافعال المجيدة عرف ما لهُ وما فيهِ من القوة فاعتزّ بها وافتخر وحقهُ ان يعتز ويفتخر واصبحت لهُ ثقة بنفسهِ في المستقبل لا حدَّ لها . واذا راجعنا حوادث الثورة الفرنسوية رأينا انها سارت في احوال كثيرة على خطة كرومويل حتى قتل الملك

على ان الاستفادة هي غير التقليد فالثورة الفرنسوية حصلت في احوال واوقات تختلف عن احوال واوقات الثورة الانكليزية التي وان كانت عظيمة بذاتها الاَّ انها كانت انكليزية فقط واما الثورة الفرنسوية فكانت عمومية وقلبت الانسانية بتمامها . ومما لا ريب فيهِ ان الثورة الانكليزية مهدت السبيل لثورة ١٧٨٩ وان اختلاط الشعبين اتى بافضل النتائج لمستقبل الانسانية

كانت فرنسا في القرن الثامن عشر لا تزال تئن من عدم وجود المساواة الاجتماعية الاَّ ان التذمّر اخذ يظهر ويزيد ولم يبقَ سوى الفرصة الملائمة لخلع نير الامتيازات الموروثة . ولما خلعت اميركا سلطة انكلترا وانفصلت عنها سرَّت فرنسا سرورًا عظيمًا ليس لفشل الانكليز بل لفوز الحرية وانتصارها وبلغ فرحها حد الجنون لما اطلت اميركا ان حكومتها حكومة ديموقراطية خادمة للشعب

(٣) فرنسا العقلية والتأثير الانكليزي

اذا انتقلنا من طبقة الشعب الى الطبقة التي تمثل الحالة العقلية في القرن الثامن عشر وجدنا التأثير الانكليزي يزيد وضوحًا ورسوخًا فنرى فولتير وديدرو وجان جاك روسو والفلاسفة والعلماء ورجال القلم قد تشربوا الافكار الانكليزية ففعلت بهم عمدًا او عن غير عمد ونرى ان فولتير بعد ان ذهب الى انكلترا واقام فيها مدة تحول من شاعر الى مفكر

وفيلسوف ومن ثم كتب رسائله المشهورة بالرسائل الانكليزية التي تجسم فيها الفلسفة والانسانية واصبح تشيعهُ لكل ما هو انكليزي عظيماً جداً

وديدرو كان بكليتهِ انكليزياً وقضى حياتهُ محرياً المبادئ الانكليزية وحاثاً على نشرها وتعميمها وكان يتحلى بالمناقب الانكليزية ويحلي بها مؤلفاتهِ ومع انهُ كان نابغة المشتين والمؤلفين كان لا ينفك عن ان يسند ما هو لهُ الى المصادر الانكليزية ويقول ان تلك المصادر هي وكن لشأتهِ ونبوغهِ وان رتشردسن وليلو وسترن وفيلون راديسون هم اساتذتهُ وان ما في مؤلفاتهِ من المحاسن « كالمتدينة » و « صاحبي البوربونية » الخ يعود الفضل فيها الى رتشردسن و يقول في الثناء عليهِ انهُ يقل عليهِ ان نشبه روايتهُ بالانجيل وان نشبههُ بموسى وهوميروس ويوريبدس وسوفوقليس . وقال بيقون ان حقيقة الطبيعة توجد فيهِ ؟

اتسعت شهرة الانكليز في فرنسا وزادت مؤلفاتهم الروائية جداً وبلغ من زيادة نفوذهم ان الروائي الفرنسوي اذا ألف رواية قال انها ترجمة عن الانكليزية فيقبل الجمهور عليها اقبالاً عظيماً حتى ان الاب بريفوست صاحب « المفكرات لخدمة تاريخ الفضيلة » اكسب مفكراتهِ رسماً انكليزياً

وروسو نفسهُ كان منشرباً الروح الانكليزية وروايتهُ جوليا ليست الاَّ وحياً من رتشردسن ومؤلفات روسو النابغة الخالد الذكر وان تكن بمكان يفوق منزلة ارسيتوبت وبيقون فانهُ استقى فيها كما استقى ديدرو من موازد رتشردسن وكلاريس هارلو . ولقد كتب كثيرون في المقابلة والتفاضل بين روسو ورتشردسن فضل اكثرهم رتشردسن الاَّ ان ذلك لا يقلل من فضل روسو لان المؤلفين مهما نبغوا فلا يأتون دائماً بالجديد واذا بحثنا في تآليف اوسع الكتاب شهرة مثل سوفوقليس وداتي وشاكسبير وموليير وغيرهم رأينا انهم لم ينفردوا في ما كتبوا وان بينهم مآخذ ومشابهات وتوارد خواطر . وهنا اوغل جان فينوفي البحث عن مآخذ الكتَّاب مما تهم معرفتهُ اهل اللغتين الانكليزية والفرنسوية فضربنا صفحاً عن نقلها اكتفاء بما سبق ونقول ملخصاً ان ما يأخذهُ الكاتب المجيد عن كاتب سبقهُ يحولهُ الى منفعة اعم او الى مبدإ اصح كما فعل روسو فانهُ نظراً لدقة شعورهِ ولطف احساسهِ وقوة قريحتهِ حوَّل ما اخذهُ عن الرقي الانكليزي الى رقي عام انساني

(٤) المقابلة بين نمو الشعبين

سار تاريخ كل من انكلترا وفرنسا سيراً متشابهاً ونما العقل فيهما نمواً يشبه نمو توأمين يؤثر فيهما مؤثر واحد فيفعل في مستقبلهما المشترك لان افعالهما وافكارهما ومشاعرهما واحدة

وكاد نجاح الامتين يكون واحداً كما يقول بكل في « تاريخ التمدن الانكليزي مجلد ٢ »

ان النسبة بين دكارت ومونتاني هي كالنسبة بين هوكر وشلنجورث مع مراعاة الفرق بين العصرين ومراعاة الفرق في المذهب فشهرة هوكر في انكلترا مهدت السبيل لشهرة شلنجورث ومن عقب مونتاني في فرنسا احيا مذهب دكارت ومبادئهُ

والفروندا (١) الفرنسوية كان لها شبيه في الحرب الاهلية الانكليزية لان في كل منهما دخلت افراد لقمع الفتنة (ريشيليو والبزابث) وفي كل منهما فعل عنصر مجهول لحد ذلك الوقت وهو الصحافة الحرة

وكان النزاع شديداً وعنيفاً بين اصحاب الرقي واصحاب الرجعة وبين القديم والحديث بين الفكر الجديد الذي بدأ ينفجر في الافق والفكر القديم الاصم الجامد الذي لا يتأثر الأ بعد العناء

وعلى جانبي المانش كان يتوارى وراء ستار الديانة الاهة سريةً هي الحرية المدنية التي اثارت فيها بعد الحروب الاهلية واسالت الدماء انهاراً وادهاراً

صارت الحوادث متشابهة من حكم لويس الرابع عشر في فرنسا وشارل الثاني في انكلترا وقامت انكلترا بعملها العظيم في الدفاع عن الحرية وخلع نير الاستبداد ثم التفت فرنسا اثرها بعد ان تأخرت عنها مدة ليست بقصيرة الأ انها في اواخر القرن الثامن عشر غنمت بضربة واحدة ما اضاعتهُ في السنين السابقة بجهاد يفوق قوة البشر وتوصلت اخيراً الى اعلان حقوق الانسان

بعد ذلك اتفقت الامتان وطرحتا سلاحهما

نشأت حرية الضمير في فرنسا واقام دكارت في كتابهِ « الطريقة » البرهان على ان الله موجود فينا وليس خارجاً عنا وانشد مونتاني في كتابهِ « التجارب » وشارون في كتابهِ « الحكمة » الاعتقاد بافعال الصدفة وظهرت في فرنسا القضية المنطقية المشهورة وهي « انا افكر . اذاً انا موجود » فاخذ عمال الانكليز هذه المبادئ شعاراً لاعمالهم وصارت مهد جهادهم في الدفاع عن الحرية ثم عاد الفرنسويون لاسترجاعها من حيث تمت وارتقت واستفادوا من عمل كرومويل فائدة كبرى يخلدها لهم التاريخ العام ولا عبرة للسبق لان انكلترا اشتغلت لنفسها ووصلت الى غرضها بسرعة واما فرنسا فتأخرت ولكنها اشتغلت لاجل العموم ولفائدة الانسانية

الدكتور امين ابو خاطر

---

(١) اسم حرب اهلية ثارت في فرنسا في عهد لويس الرابع عشر قبل بلوغهِ سن الرشد وكان مازران على رأس الحكومة وانتهت بانتصار الملكية